جنيه في السنة فتخلصت من هذه النفقات واذ لم تصب المفاوس بالجدب على جاري العادة او اذ علم الضامنون طريقة يداوون الجدب بها فبقيت غلتها كما كانت سنة ١٩٠٥ ربحوا من ذلك ربحاً وافراً لانهُ خرج منها تلك السنة نحو ٧٨ مليوناً و٥٠٠ الف صدفة بيعت بنحو ١٧٥ الف جنيه. والمرجح ان الضامنين يعملون سبيلاً لتخليص المفاوس من الجدب لانهم بعثوا جماعة من العلماء يبحثوا فيها قبل ضمنوها فاذا افلحوا فلا بدَّ من رخص المؤونة على اثر ذلك الاَّ اذا زاد الغواني اشياعاً لهُ وتنافساً بهِ وتحكَّم الضامنون في ما يستخرجونهُ منهُ ويعرضونهُ للبيع

فوضى الكتّاب

ضمني واحد المستشرقين الاوربيين مجلسٌ دار فيهِ الحديث على النهضة الادبيَّة في سوريا ومصر فادهشني من الرجل سعة اطلاعهِ على تاريخ هذه النهضة وعلى دقائق شؤون الانقلاب الذي حدث في مدى النصف الاخير من القرن التاسع عشر واحببت ان اسرد اهم اقوالهِ لما فيها من الفائدة

ولا بدَّ لي قبل الخوض في باب الموضوع ان انوه بفضل محدثي فهو من رجال العلم الذين دأبوا منذ حداثتهم على التوسع في البحث وعلى تحكيم العقل في المشاهدات لاستنتاج الحقائق على انهُ يعرف بضعةً من اللغات الشرقية معرفةً مستحسنة اما في العربية فهو راسخ القدم يكاد لا يمرّ بهِ ذكر كتاب الاَّ استحصلهُ وقرأهُ فرأيهُ اذًا ثقة يرجع اليهِ

قال محدثي اني رجل قرأت العربية في شبابي واقمت في سوريا ومصر ردحاً من الزمن توسعاً في معرفة اللغة وتمكناً من فهم اصطلاحات المتكلمين وقد مرَّ عليَّ حتى الآن نحو من اربعين سنة اقرأ معظم ما ينشر من الكتب والمجلات والجرائد تتبعاً لسير الافكار عندكم فكأني معرض حي لآثار النهضة

رأيت في بدء مطالعاتي ان بعض كتبة تلك الاونة يحاولون تقليد الكتبة الاقدمين فلا يحسنون ولكنهم يخبطون خبط عشواء لا سيما وان منهم من كان يتحرَّى تحسين كتابتهِ بالاستعارات والكنايات وامثالها من المحسنات اللفظية ليستروا ضعف المعاني وسخافة التركيب وغيرهم يحجمون الكلام فيجيء مبهمهم ركيكاً مقفلاً. واكثر ما كان هذا بين الناشئين من الكتّاب في مصر. الاَّ ان هذا الكلام لا يدل على اني لم اجد بين كتّاب مصر يومئذٍ من

يجيد الصناعة . بالعكس قرأت لافرادٍ منهم رسائل وكتباً معرّبة تدل على جدارة كتابها حتى ان منهم من احسن تقليد المتقدمين

غير ان دراسة تلك الكتابات جملةً تدل كما قلت على ان الكتابة كانت في طورها الاول واما في سوريا فالذين كتبوا يومئذٍ ارادوا التخلص من قيود التقليد القديم ولكنهم لم يتخلصوا . فبرزت كتاباتهم ضعيفة التركيب سقيمة المباني

ونُشرت الجرائد القليلة في سوريا ومصر ضعيفة معنى ومبنى بحيث لا يتقدر الشرّ على الاستفادة منها

وظلّ هذا الحال بضع سنين كنت في خلالها اظن ان سبب هذا الضعف قصد كتابها ان يغيروا مناهج العهد القديم بعبارة بسيطة تفهمها العامة التي صارت لا تقوى على فهم لغة ابن المقفع وابن خلدون وابن عبد ربهِ وامثالهم

ولكني لما عدت الى سوريا واجتمعت ببعض اولئك الكتاب رأيتهم قد تعلموا العربية في كتب حديثة ومن ثمّ لم اجد منهم من تمرن على قراءة الكتب القديمة ليكتسب منها ملكة الانشاء الصحيح

واما المباني فرأيت السوريين يجهدون النفس بالاطلاع على المعارف والآداب الاوربية اطلاعاً سطحياً ليشروها بين قومهم وقد لحظت مراراً انهم يترجمون من غير ثبت ويكتبون عن غير تدقيق فعذرتهم لاني عرفت ان التعليم عندهم كان حتى يومئذٍ قاصراً على المبادىء الاولى . والافراد القليلون الذين كانوا قرأوا العلم لم يكونوا من العاملين في الكتابة والكاتب العالم كان مضطراً لمجاراة الجمهور في اختيار المواضيع المألوفة ووضع المعاني التي يقبلها الذوق العام

بحثت عن المدارس فرأيتها يومئذٍ ابتدائية كلها يتجه تعليمها الى تلقين بعض المبادىء الاولية والى تعليم لغة اصحاب تلك المدارس . ولكني اسلّت خيراً بالمدرسة الكلية الاميركانية لاني عملت بسعيها في تعليم العلوم العالية

ولا تسلني عن مصر يومئذٍ لان التعليم فيها كان قاصراً والانشاء كان على حاله الاول من الضعف والركاكة والافراد الذين كانوا يعرفون العلوم الحديثة ويملكون ناصية الانشاء لم يكونوا على الاكثر من الكتّاب . فكانت الناشئة تعتمد في مطالعاتها على كتب سورية وجرائدها مع ان مطابع مصر كانت منذ سنين تنشر مؤلفات قديمة او معرّبات مستحدثة حسنة في بابها وهي بجملتها ارقى انشاء واسلم لغةً من بعض المؤلفات والمعرّبات التي طبعها في سوريا بعض مستشرقي زلاتها من الافرنج

لم يمض عليّ الاّ بضع سنين حتى رأيت للقلم السوري نهضةً مدهشة . اتلفت الركاكة سلك التركيب . حسن السبق . دبّ المعنى في المبنى . فاستبشرت بالانقلاب الى الاحسن وتتبعت المجرى فازددت اعجاباً بذكاء الشرقي ومرونة القابلية . رأيت ان شعلة الاجادة التي علقت في سوريا قد امتدّت الى مصر . فاصبحت جرائدها التي كانت ركيكةً ضعيفةً في ثوبٍ قشيب من حسن الانشاء ورقة التعبير واشتدت صناعة القلم وكثرت كثرةً يدلّ ظاهرها على استفحال الادب . اما سورية فانها وقفت حيث بلغت من التأليف والكتابة لان معظم كتابها برحوها واتخذوا من مهاجرهم مظاهر لبنات افكارهم

ولما سعيت لمعرفة اسباب هذه الحالة المحزنة تبينتها فاذا هي منبعثة عن تمرّن الطلبة على الانشاء الجيد بقراءة الكتب القديمة واختيار اطايب تراكيبها على انهم لم يتقيدوا بقيود المعاني القديمة والمباني المنصوص عليها بل صاروا يبتغون المباني للتعبير عن المعاني التي تجول في خواطرهم

وهذه المعاني نفسها قد اتسعت لديهم دائرتها بما تلقنوهُ من قراءة كتب السابقين في الحضارة وبما صار اليهِ معظم حملة الاقلام من سعة الاطلاع

ثم ان للمدارس يداً في تنقيف هذه الناشئة وفي رقيّ افكارها والمدرسة الكلية الاميركانية لم تبقَ الوحيدة في تعليم العلوم العالية بل تبعتها المدارس الاخرى وكثر عدد المتخرجين

فما تقدم يظهر لك اني اعترف بارتقاء الانشاء في سوريا ومصر الى درجةٍ عالية في ذوقي الاّ اني لا اقصد ان كتّاب العربية اليوم صاروا يجارون الكتبة المتقدمين في مناحيهم واساليبهم وانما نهجهم اليوم هو اقرب الى الغرض المقصود من الكتابة بحيث تبلّغ المعاني باساليب متينة التركيب بليغة التعبير . بقي ان ارتقاء هذا الارتقاء الادبي انحطاطاً يكاد يعادلهُ ويخشى ان تكون عواقبهُ مضرة بالنهضة الادبية بمقدار ما ينفع النهضة تحسين الانشاء ووفاؤهُ بالغرض

اريد بهذا ان كثيرين من حملة الاقلام يدخلون عالم التأليف والتعريب وانشاء المقالات ويخبطون في ذلك خبط عشواء . يكتبون اشياء ضعيفة السند او هي من قبيل الوهم والخرافة كأنها حقائق اثبتها العلم . فتضل بها عقول الاحداث وينطلي محالها على السذج الضعاف فينتج من ذلك شيوع الآراء المرجوحة وامتزاجها بالحقائق الراهنة التي يبثها رجال العلم

ومما يؤخذ على هؤلاء الكتّاب انهم يخوضون احياناً عباب الابحاث العلمية على غير هدىً كأنهم قرأوا شيئاً لم يفقهوا مغزاهُ اما لانهُ مكتوب بلغة غريبة لا يحسنونها او لتمرض المعنى فلا يقعدهم جهلهم عن نشرهِ بين الناس سديجاً يبرأهم كأن الحقيقة العلمية التي يريدون نشرها تحتمل تلاعب الالفاظ وتنسيق الاساليب في بسطها

والكثير من هؤلاء المعرّبون واكثر ما يقصدون نشرهُ الآداب الافرنجية مصوغة في قالب قصصي. وهنا يرتكب الكتّاب غلطين الاول في انتقاء المؤلفات التي يريدون تعريبها فانهم قلّ ان ينظروا الى الفرق بين المجتمع الذي ينقل الحديث عنهُ وبين المجتمع العربي اللغة الذي يراد النقل اليهِ ولذلك قلّ ما نجد قصةً معرّبة تفيد سوريا ومصر افادةً تهذيبية في الغاية من وضع التأليف في لغتهِ الاصليةِ فضلاً عن ان الاوربيين والاميركيين قد طرقوا بروياتهم كل مواضع الضعف من عاداتهم وصاروا الى خرق الحجاب الادبي كشفاً لعيوب النحش ومثل هذا ليس على شيء من الفائدة في الشرق حيث لم تزل الخدرات في يده اخذهن بالمطالعة وتأثرهن بآدابها والثاني ان المعربين لتلك الاقاصيص لا يتبعون الاصل الاّ في سرد الحكاية فاذا عرضت لهم نكتة ادبية او موعظة او غير ذلك تجاوزوها كأن واضعها جعلها حجر عثرة في سبيل الحكاية

فهذه حالة الاقلام العربية اليوم لا يصلح فاسدها ولا يقوم اعوجاجها الاّ السيطرة عليها والسيطرة المطلوبة تقوم بها المجلات ذلك ان تفتح في عمدها باب الانتقاد فتختار لهُ الرجال الاكفاء يتناولون مباحث الصحف ومنشورات المطابع ويقدونها نقد العارف البصير لا يراد بذلك الحط من كرامة كاتبها بل تمحيص صحيح قولهِ من فاسدهِ الاّ ان دون ادراك هذه الغاية في الشرق صعاباً لان الكتبة لا يسلمون لاحد بتصحيح خطائهم بل يحسبون انتقادهم حطاً من شأنهم وغضاً من كرامتهم فيسخطون ويناهضون الكتاب والمجلة وينتهي البحث الادبي بهم الى الشتائم والسباب غير انا نقام لجنة عليا من نخبة الناقدين ومحرري المجلات للحكم في النقد والرد عليهِ ولا يعبأ بعد حكمهم بما يقال في نقضهِ

ومتى سار كتّاب الشرق على هذا النهج القويم علم الادعياء والمتطفلون ان في سوء بداءة الكتابة رجالاً يحكمون بسداد قولهم او ضعفهِ ولا يلبث الرأي الادبي العام الآخذ بالنشوء ان يسير على هدي مداتهِ فيصح الصحيح وينقضي زمن الفوضى

ي . ي